

القيم الخلقية في شعر الشنفرى

The Moral Values In Chanfara's Poetry

أ/ العيفاوي حمزة

طالب دكتوراه (LMD) جامعة البليدة 2

د/ فضالة إبراهيم جامعة البليدة 2

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تصحيح خطأ طالما تكرر في الدراسات الأدبية وهو الحكم على الشعراء الصعاليك بأنهم طائفة منعومة الأخلاق، اتخذت من الصعلكة وسيلة لقتل الأبرياء والسطو على الأثرياء، وقد يُعدّ السبب في تلك الأحكام القاسية إلى الانطلاق من مواقف مسبقة تعتمد التفسير الخاطئ لظاهرة الصعلكة. ويعدّ الشنفرى أحد أولئك الذين طالهم هذا الحكم لكثرة ما جناه على قومه، والحكم الصحيح في رأينا هو إعادة النظر في تقييم هذا الشاعر أخلاقياً وفي تصنيفه اجتماعياً برؤية تكون أكثر إنصافاً وعدلاً. وقد بدت لنا جملة من الصور الرائعة عن الشجاعة والإقدام والصبر والكرم في شعر الرجل، وهي الفضائل التي أقرّها الإسلام فيما بعد، وهي ما تحاول هذه الدراسة التطرق إليه.

Abstract :

We will try in this study to correct a big mistake which is repeated in literary studies. Those studies consider homeless poets as a sect which had to values, instead they say that this sect used their bad attitudes to kill poor people and to steal rich ones.

Chanfara was considered as one of them, because he was so hapless with his city persons.

In my opinion, the correct attitude is to re see this incorrect valuation of chanfara socially and morally. We must re see him more legally because we can see many beautiful and moral thing in his poetry like courage and patience. Furthermore the beautiful values were mentioned in Ishim. This is what we will see in our study.

*** **

مقدمة

وجد العربي فخره في بلاغة القول وروعة البيان، ولذا حملت إلينا كتب الأدب ما جرى على ألسنة الشعراء من المفاخرة بمكارم الأخلاق التي كانت هدفاً أسى لدى الإنسان

العربي، وقد «احتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد وسمائحها الأجواد؛ لتهز أنفسهم إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم»⁽¹⁾ التي تطهر النفس البشرية من الرذائل والشرور التي تعاني منها، وتعلم كل فرد من أفرادها كيفية التغلب على نوازغ النفس وأهوائها المختلفة التي تجره إلى الشرور والرذائل.

والملاحظ من أشعار الشنفرى أنه كان إلى جانب تعسفه في أخذ حقه تعسفاً شديداً إلى درجة استمرراً فيها حياة القتل والإجرام، أبيعاً شريفاً ومتصفاً بجملة من القيم الأخلاقية الكريمة، وليس أدل على هذا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "عَلِّمُوا أَبْنَاءَكُمْ لَأَمِيَّةَ الْعَرَبِ فَإِنَّ فِيهَا الْقِنَاعَةَ وَالشَّجَاعَةَ" وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ لَأَمِيَّةَ الْعَرَبِ فَإِنَّهَا تَعَلِّمُهُمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"⁽²⁾

ويمكن إرجاع ما اتصف به الشاعر من بعض القيم السلبية المتمثلة أساساً في الإسراف في القتل إلى الظروف القاهرة التي كان يعيشها، والتي جعلته ينزع الرحمة من قلبه ويستبدلها بالقسوة والقوة «وقد يتغير حسن الخلق والوطاء إلى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة، وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة، والطلاقة عبوساً»⁽³⁾ وهذا ما حدث مع شاعرنا فقد دفعته ظروف الحياة القاهرة إلى فعل أشياء خارج طبيعته التي فُطر عليها، وحملت مسؤولية ما قام به من قتل ونهب وسلب إلى النظام القبلي الذي كان سائداً في تلك الفترة، والتي عمق فيها الهوة بين الأغنياء والفقراء، فازداد الغني ثراءً وازداد الفقير فقراً، بالإضافة إلى العبودية التي أرهقت كاهله منذ نعومة أظفاره.

الشنفرى وبيئته

كان للتقاليد القبلية التي احتكم لها العرب في حياتهم، وتوزيع الثروة توزيعاً غير عادل، واستعباد البشر أثراً واضحاً في نشوء فئة الصعاليك في العصر الجاهلي الذين جمعهم الفقر والتشرد والتمرد على الأوضاع السائدة آنذاك، فعاشوا في القفار والفلوات، وآمنوا بالقوة كوسيلة وحيدة للدفاع بها عن حياتهم، وتحصيل قوتهم، وتحقيق وجودهم، وهذا لا يتأتى إلا بالغزو والإغارة والقتل من أجل تأمين ضروريات الحياة من جهة، ولإثبات الذات من جهة أخرى.

ولم تكن حياة الصعاليك مستقرة بل كانت قائمة على التنقل والحركة بصفة عامة، وهذا ما جعل تأثير البيئة فيهم أمراً بادياً؛ فالجفاف والجذب وصعوبة الحياة فرضت عليهم تقديس القوة التي ولّدتها الظروف الطبيعية والاجتماعية التي نشأوا فيها. والشنفرى من الذين كانت للبيئة أثراً واضحاً عليهم، «فقد نشأ في صحراء قاحلة، اعتمد أهلها في حياتهم على الغزو للأماكن الخصبة حيث عانت الجزيرة العربية فقراً مدقِعاً نظراً لانعدام نزول المطر بانتظام، ثمّ لهبوب الرياح الشديدة التي تفرض عليهم الانتقال باستمرار حتى إنّ البدوي ارتبطت حياته بالتنقل بحثاً عن حياة أكثر رفاهية من الأماكن السالفة»⁽⁴⁾ وفي هذا العالم حيث فقدان الأمن حالة طبيعية، والغزو وسيلة للعيش، والثأر واجب مقدّس فرض على الشاعر أن يكون محارباً، ومعجباً بالقوة مهما كانت نتائجها.

وعلى هذا فقد فرضت البيئة على الشاعر أن يكون مستعداً للغزو والنهب والإغارة على المناطق الخصبة من أجل تأمين ضروريات الحياة، واكتساب الجَلَد الذي يُعينه فيما بعد على تحمل قسوة الحياة وغضب الطبيعة، وكان من نتائج هذه البيئة القاسية أنّ خلّفت من الشاعر رجلاً شديداً قوياً وشجاعاً، ومثلما يرى الدارسون فإنّ البيئة القاسية «تربّي في نفوس أبنائها صفات الشجاعة والجرأة والكبرياء»⁽⁵⁾ وهو ما نشأ عليه الشاعر، وعُرف به.

وبجانب ما ذكر من تأثير العامل الجغرافي في تكوين شخصية الشاعر، هناك العامل الاجتماعي الذي أسهم بدوره في تغيير نمط حياة الشاعر، وإكسابه الصبغة الدموية التي عُرف بها، وإذا نظرنا إلى حياة الشنفرى لمسنا له بعض الأعداء فيما قام به، فهو أولاً عاش حياة العبيد يخدم قوماً غير قومه، ولا ذنب له سوى أنه استبدل بأسير في صغره، هذه الحياة ألقت بظلالها على نفسية الشاعر فظل في قرارة نفسه يبحث عن خلاص لما هو فيه إلى أن أتاحت له فرصة التصعلك. وثانياً قتل قومه لوالده وهو شيخ كبير وهو ما حرّ في نفسه كثيراً، وقد دلّ على هذا قوله:⁽⁶⁾

أضعتم أبي إذ مال شِقُّ وسأده ***
على جَنَفٍ قد ضَاعَ من لم يُوسَدِ
فإنّ تطعنوا الشَّيخَ الذي لم تُفوتوا * مَنِيَّتُهُ وغِبْتُ إذ لم أشْهَدِ

فالشاعر في هذين البيتين يُحْمَلُ قومه مسؤولية قتل والده غدرًا، ويتوعددهم بالثأر والقتل. وثالثاً رغبته في الزواج من بنت الذي ربّاه، ومعارضة الفتاة لأنها لم تكن تراه في مستواها، وهي بنت العز والدلال، وهذا ما دلّ عليه قوله: (7)

إذا ما أرومُ الوُدَّ بِنِي وبِنَهَا *** يَوْمُ بَيَاضِ الْوَجْهِ مَتَى يَمِينُهَا

فالعائق والحاجز الذي حال بينه وبين قلب الفتاة هو سواد لونه الذي لا يملك التصرف فيه، وبياض لونها الذي يدل على مكانتها الرفيعة بين قومها، والعرب كانت تكني بالبياض عن الرفعة والسمو، فهذه الأخيرة كانت مطمعا لجميع فتيان الحي، فكيف تقبل بالزواج منه وقد كان ذميم الخلقة أسود اللون، إضافة إلى تهديد قومها لأبيها إن قبل بتزويجه أن يكون مصيره القتل، وهو ما حدث فعلا فيما بعد.

كُل هذه الترسبات خلّفت أثراً سلبية على ذات الشاعر، وجعلت مشاعر الحقد والكراهية تتأجج في صدره، واستبدلت القيم الراقية والفاضلة بقيم سلبية ما كان ليُفكر فيها لو كان هناك نظام اجتماعي عادل لا يضع السدود والحدود والقيود ضد أفراد القبيلة مهما كان جنسهم أو لونهم، فالمجتمع الذي عاش فيه الشاعر كانت فيهم دنيا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ويأبأها الوجدان وهو ما ثار عليه، وما جاء الإسلام فيما بعد رافضاً لها وداعياً إلى تغييرها واستبدالها بمكارم الأخلاق.

وإلى جانب العامل الجغرافي والعامل الاجتماعي، فهناك عامل ثالث لا يقل خطراً وتأثيراً عن سابقه وهو العامل الاقتصادي فقد كان السكان على فئتين؛ فئة قليلة تملك الكثير وتستأثر به والغالبية لا تملك شيئاً وهذا ما جعل الحقد ينمو في نفس الشاعر ضد تلك الطبقة الغنية البخيلة أو الكريمة في آنٍ معا (8)

لقد أثّرت العوامل الثلاثة على تفكير الشاعر ونشأته تأثيراً كبيراً، إذ أوجدت بينه وبين طبقة الأغنياء البخلاء وأعيان القبيلة وسادتها صراعاً دموياً عنيفاً، إلا أنّ هذا لا يمنع اتصاف شاعرنا بمجموعة من المكارم والقيم الخلقية التي نذكر منها:

أولاً: الشجاعة والإقدام

عُرف العربي بشجاعته وإقدامه والشجاعة عند الجاهلي تعني «الإقدام على الحياة والإقبال على كل ما فيها من ملذات وآلام دون خوف أو خجل» (9) وحدّاه الإقدام في مواضع الإقدام، والإحجام في مواضع الإحجام، ومن أكبر مظاهرها «حضور الذهن عند الشدائد،

فشجاعٌ من إذا عراه خطبٌ لم يذهب برشده، بل يقابله برزانه وثبات ويتصرف فيه بذهن حاضر وعقل غير مشتبك»⁽¹⁰⁾

فالشجاعة إذاً هي الجرأة والإقدام على المواقف الصعبة بقلب ثابت، وبصورة متزنة تنم عن تعقل وإدراك للنتائج. والشنفرى نشأ على الجرأة والإقدام، فكان شجاعاً ألباً، وكثيراً ما تحدّث عن ضروب الشجاعة التي أبدّاها في غزوه وحربه ضد بني سلامان الذين استعبدوه وفرضوا عليه أن ينتهي سبيل الصلعة، ومن صور الشجاعة قوله مفتخراً بشجاعته ورفاقه في إحدى الغزوات:⁽¹¹⁾

فشنّ عليهم هزّة السيف ثابتٌ *** وصمّم فيهم بالحسام المسيّب
وظلّت بفتيانٍ معي أتقيهم *** بين قليلاً ساعةً ثمّ خيّبوا
وقد خرّ منهم راجلان وفارسٌ *** كيّ صرعناه وقرّم مسلّب

في هذه الأبيات يتحدّث الشاعر عن شجاعته ورفاقه في المعركة الدائرة بينهم وبين قبيلة بجيلة، فبعد أن استولى الصعاليك على إبل كانت لبجيلة وساقوها اعترضت لهم خثعم -قبيلة زعيمها ابن حاجر- في نحو أربعين رجلاً، فقرر الصعاليك أن يتفارقوا ثم يحملوا على القوم حملة واحدة، فشنّ رفاقه هجومهم على أعدائهم بشجاعة منقطعة النظير وهم قلة يواجهون كثرة، وقد كانت نتائج هذه المعركة لصالحهم أين سقط من رجل قوي شديد البأس، وكذلك سيد من سادة القوم، وفي تركيزه على هذين الرجلين؛ الشجاع والسيد دليل على حرص الشاعر ورفاقه على مقارعة الأقوياء الذين يتميزون بالشجاعة وشدة البأس، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على إقدام الصعاليك وشجاعتهم واقتحامهم المخاطر دون خوف أو تردد.

ومن صور الإقدام أيضاً قوة العزم والشكيمة، وهذا ما نلمسه في قول الشاعر:⁽¹²⁾

ولا ظمأٌ يؤخّرني وحرٌّ *** ولا حمصٌ يقصّر من طلاب

إن شدة العطش والحرارة والجوع لن يكونوا عائقاً يحول بين الشاعر وما قرّر العزم عليه، وفي هذا التحدي للظروف الطبيعية القاسية التي لا يصمد أمامها أيّا كان نوع من الشجاعة المنقطعة النظير التي تجعل من الشاعر مثالا في الشموخ والصمود والتحدي، ونموذج صادق عن الإصرار في تحقيق الأهداف بالرغم من كل العوائق والحواجز، وكل هذا لا يتأتى إلا بالشجاعة والإقدام.

(13) وفي قوله:

أُمِّيَّ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَنْ تَضُرَّنِي *** لَأُنْكِي قَوْمًا أَوْ أَصَادِفَ حَمِّي

غاية الشجاعة والإقدام وحسن التدبير أن يضع المقاتل خطة حربية يتحسب فيها لأسوء الاحتمالات، فشاعرنا يرى أن فرص نجاحه تتساوى مع إمكانية موته، ولكنه يُقدم ثابت الجأش شديد العزم ماضٍ فيما قطعه على نفسه من وعد، فالأمر لديه سيان أن يُنكي قوما كانوا سببا في تعاسته وبؤسه أو أن يموت في سبيل هذه الغاية التي يراها جديرة بالتضحية، وقليل من الناس من يثبت إلى آخر لحظة، والمتتبع لسيرة الشنفرى يلحظ أنه بقى عزيز النفس مرفوع الهامة حتى في لحظات موته التي يجبن فيه أقوى الأقوياء.

(14) وفي قوله:

وَوَادٍ بَعِيدٍ الْعَمَقِ ضَنْكُ جُمَاعُهُ *** مَرَايِدُ أَيْمٍ قَانِتِ الرَّأْسِ أَخَوْفُ
وَحُوشٍ مَوًى زَادِ الدِّثَابِ مُضِلَّةً *** بَوَاطِنُهُ لِلجِنَّ وَالْأُسْدِ مَأْلَفُ
تَعَسَّفْتُ مِنْهُ بَعْدَمَا سَقَطَ النَّدَى *** غَمَالِيلٍ يَخْشَى عَلَيْهَا الْمُتَعَسِّفُ

لم يكن قوم الشاعر وحدهم من يتربص به بل البيئة التي يعيش فيها تترصد له هي الأخرى؛ فالوهاد والوديان السحيقة التي تسكنها الضواري بجميع أنواعها من أسود وذئاب وجن - على حد تعبير الشاعر - هي مهالك محتملة يمكن أن يموت فيها دون أن يجد من ينجده أو حتى يروي خبره، لكن شجاعته وصلابة عزيمته ذللت أمامه هذه الصعاب، فأحساسه بالظلم ظلّ وقودا لنار الثأر المضطربة في فؤاده، وكلّما تعرض لأخطار تهدد حياته تذكر أسباب شقائه ومحنته فتزيده إصراراً على المضي قدماً وعدم الالتفات إلى الوراء إلى النهاية، فإمّا أن يُحقق ثأره وإمّا أن يموت في سبيله، وهذا لعمري أسى صور الشجاعة وأجلها.

(15) وفي قوله:

وَكُلُّ أَبِيِّ بَاسِلٌ غَيْرَ أَنِّي *** إِذَا عَرَضَتْ أَوْلَى الطَّرَائِدِ

٥١ - ٥٢

يتغنى الشاعر بشجاعته وقوته التي فاقت الضواري من وحوش القفار، فسبقه إلى الطرائد دليل شجاعة وقوة واحتراف وأراد الشاعر إظهار تفوقه بذكر الذئاب والضباع - في البيت الذي يسبق هذا البيت - لما تمتاز به من قوة وشراسة واحترافية في الصيد واقتناص الطرائد، فتكون الصورة واضحة في ذهن المتلقي مما ييسر عليه وصف نفسه بأنه الأشرس والأسرع والأسبق في هذا المضمار.

وفي قوله: (16)

ولا حَرْقٍ هَيْقٍ كَأَنَّ فُؤَادَهُ *** يَظَلُّ بِهِ الْمُكَاةُ يَغْلُو وَيَسْقُلُ

يفتخر الشاعر برباطة جأشه وثبات قدمه عند مواجهة الخطوب، فلا يضطرب فؤاده ولا يتسلل الخوف إلى قلبه، إنما يواجه الصعاب والمهالك بكل تجلد وصبر وحكمة في التصرف فلا يطيش لبه وينبو حسامه بل يضع في حسابه النصر والهزيمة وهو في جميع أحواله مقدم، ولا يعرف الخوف سبيلاً إليه.

وفي قوله: (17)

ويومٍ من الشُّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ *** أَفَاعِيهِ فِي رَمَضَانِهِ تَتَمَلَّمُ

نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَلَا كِنَّ دُونَهُ *** وَلَا سِتْرَ إِلَّا الْأَتَحْيَى الْمُرْعَبُ

وَحَرْقٍ كَظْهِرِ الثُّرَيِّسِ قَفَرٍ قَطَعْتُهُ *** بِعَامِلَتَيْنِ ظَهَرَهُ لَيْسَ يُعْمَلُ

إن مواجهة أهوال الطبيعة تتطلب صبراً وجلداً وحكمة، إذ لا سبيل إلى الخلاص منها بل مقارعتها بقوة العزيمة ومتانة الشكيمة وإعداد ما يعين على ذلك من أسباب، والشاعر يخرج في اليوم القائن الذي لا تقوى الأفاعي على احتماله رغم اعتيادها على شدة الحر، بغير غطاء يستر وجهه ولا لباس يقي بدنه سوى ثوب بال كثير الثقوب يسير في دروب مهمة لم تصلها قدم آدمي من قبل، وما هذا إلا دليل إقدام منقطع النظير بدافع لا تقف دونه الحواجز والحوائل، إنما المضي إلى الغاية المنشودة مهما تكن الظروف، ومهما يكن حجم المشقة، وهذه هي صفة الشجعان الذين لا يهابون شيئاً، ويبذلون النفس والنفيس في سبيل تحقيق غاياتهم وأهدافهم.

ومن الشجاعة غير المعهودة لدى الشاعر عدم مبالاته بالموت، وقد دل على هذا

قوله: (18)

لَا تَقْبُرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ *** عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ

إِذَا احْتَمَلُوا رَأْسِي فِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي *** وَغُودِرَ عِنْدَ الْمُلتَقَى ثَمَّ سَائِرِي

هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةً تَسْرُنِي *** سَجِيسُ اللَّيَالِي مُبْسَلًا بِالْجَرَائِرِ

أقدم الشاعر على مواجهة قومه وهو مدرك للعواقب متحسب للحظة وقوعه بين أيديهم، وهو صاحب مقولة "كل قاتل مقتول" فحينما وقع أسيراً لديهم لم يجزع ولم يبد ندماً ولا أعطاهم فرصة أن يعرضوا عليه الفداء، فقد كان ينتظر منيته بكل شجاعة ولم ينلهم شرف التفضل عليه بأن يلبوا له مطلب تعيين مكان دفنه، بل أنف أن يقبر بينهم

لأنهم لم يعودوا أهلاً له، ولم يتح لهم فرصة التفضل عليه وإكرامه بالدفن حتى بعد موته، وفضل أن يكون جسده وليمة يكرم به من اعتبرهم أهله وعشيرته، وفي تحدي الموت وترحيبه به إذلال لقومه، فالمنهزم إذا ابتسم أفقد المنتصر لذة النصر فكيف بشاعرنا وهو فاتح ذراعيه للموت بكل شموخ وكبرياء.

وفي قوله: (19)

إذا ما أتنني ميتي لم أباليها *** ولم تُذرِ خالاتي الدُموعَ وعمّي

احتقر الشاعر الموت حتى ما عاد يقيم لها وزناً لأنَّ الحي الذي يُكابد الظلم والقهر وقلة النصير لا يتشبث كثيراً بالحياة لأنَّ موته وحياته سياتان، كما أنَّ موته لا تثير الحزن في نفوس أقاربه من عمات وخالات لانعدام حبل الودّ والوصال بينهم فلا شيء يدعو إلى الحزن عليه، ولكثرة الجنايات التي اقترفها ضد قومه وتعدد ضحاياه فإن أجمل بشري يمكن أن يتلقوها هي موته، وعدم المبالاة بالموت من شيم الشجعان الذين لا يُثنيهم شيء عما عقدوا عليه العزم وإن كان الثمن حياتهم.

ومن مظاهر الشجاعة والإقدام الأخذ بالثأر، وهي عادة استحكمت في نفوس الجاهليين إلى حدٍّ بعيد إلى درجة أصبحت فيها عقيدة ينبغي على الشخص القيام بها وإلا لحقت به اللعنة ونال شتيمة الدهر، والسبب في هذا الحرص الكبير على كرامة الفرد وعشيرته، حتى لا يستهان بها (20) وقد ثار الشاعر لمقتل أبيه بعد أن شبَّ وأدرك الحقيقة، وهذا ما دلَّ عليه قوله: (21)

قتلنا قتيلاً مُحَرِّماً بِمُلْبِدٍ *** جَمَارَ مَيِّ وَسَطَ الْحَجِيجِ الْمُصَوِّتِ

جَزَيْنَا سَلامانَ بِنَ مُفَرِّجِ قَرْضِهَا *** بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ وَأَزَلَّتِ

على الرغم من قداسة المكان والزمان اللذان يُحرِّمان القتل، إلا أنَّ الشاعر لم يُعر الأمر أدنى اعتبار لأنه بتصلعه كسر جميع الأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع، وقد ثار لمقتل والده بقتله لغريمه الذي لم يثنه عن قتله حرمة المكان والزمان، وقد كان ينظر إلى الأمر على أساس أنه دينٌ لا بد من إرجاعه، ومن المعلوم أنَّ الذي يسعى لطلب الثأر لا بد أن يتحلَّى بالشجاعة والبأس والإقدام، وهو ما تحقق في شاعرنا الذي نذر حياته للثأر من قومه الذين كانوا سبباً في خروجه عن إنسانيته.

وفي قوله: (22)

قَتَلْنَا بِعَمْرٍو مِنْهُمْ خَيْرَ فَارِسٍ *** يَزِيدَ وَسَعْدًا وَابْنَ عَوْفٍ بِمَالِكِ

ظَلَّلْنَا نَفْرِي بِالسَّيُوفِ رُؤُوسَهُمْ *** وَنَرَشُقُهُمْ بِالنَّبْلِ يَبْنَ الدَّكَادِكِ

يتحدث الشاعر عن ثأره لمقتل رفيقيه عمرو بن كلاب والمسيب بن علس الذين قتلهم قبيلة بجيلة، فثأر لقتلهم بقتل يزيد وسعد وابن مالك، وظلَّ ورفاقه يقطعون بالسيوف رؤوس أعدائهم، ويرشقونهم بالنبال في الأرض الغليظة الصعبة، والملاحظ أنَّ الشنفرى لم ينتقم من عامة الناس، بل كان يؤمُّ الأشراف الذين تحوطهم الحراسة المشددة فينال منهم، وما هذا إلا فعل مقدم مغوار لا يهاب الموت ولا يحسب للعدو حساباً مهما بلغت قوته أو كان عدد حرسه، كما أنَّه لم يتخير من قومه إلا فرسانهم الأشداء الذين لا يشقُّ لهم غبار فيؤدبهم صرعى كونه لا يرضى بالصيد السهل، بل يريد أن يغامر ويواصل الثأر مادامت فيه حشاشة نفس، حتَّى إذا ذاع خبر مقتل أحد الأشراف أو الفرسان الأشداء كان ذلك أنكى في قومه، فهو لا يريد مجرد القتل بل القتل الذي يُخلفُ جراحاً غائرة في نفوس من ألجؤوه إلى هذه الوضعية البائسة التي ظلَّ فيها طريداً يترصده الموت من كل جانب.

إنَّ المتأمل لديوان الشنفرى يجده مليئاً بالألفاظ الدالة على الشجاعة والقوة، وهو ما يدل على اتصاف شاعرنا بهذه المكرمة التي اختصت بالأشراف، وكأنَّه أراد توجيه رسالة لكل الخانعين القانعين بالذل والهوان أنَّ بإمكانهم الانتفاض وتغيير أوضاعهم إلى الأفضل شريطة التحلي بالشجاعة والإقدام والثبات.

والمثير للدهشة والإعجاب أنَّ الظروف الصعبة والقاسية زادت في شجاعة الشاعر وبأسه، فلا تراه إلاً مقدماً وماضياً إلى الأمام دون الالتفات إلى الوراء، كما أننا من خلال دراستنا لديوانه لم نجد موضعاً أبدى فيه الشاعر خوفه أو تضجره من وضعه وحاله، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على قوة شخصيته وشجاعته النادرة في مواجهة أجل الخطوب، وما عيشه بين الضواري وفي الجبال والوديان خير دليل على ذلك.

ثانياً: الصبر

الصبر نقيض الجزع، وهو خُلُق كريم وسبيل الفرج ومفتاح النجاح ومطية النصر، فمهما تعسّر الأمر واشتد فلا بد في نهاية المطاف من الفوز والفلاح⁽²³⁾ وقد عُرف عن الشنفرى قوة صبره وشدة تحمله إلى درجة تفوقه حتى على أقرانه في هذه الخاصية، وهو ما جعل قومه يطيش حلمهم ويتعجبون من قدرته على البقاء حياً وهو يعيش تلك الحياة،

وكيف يقوى على مواجهتهم والتصدي لهم، وهو ما جعله ظاهرة فريدة لم يُسمع لها مثيل، ومن صبره الذي عُرف به الصبر عن الجوع وإماتته، وهذا ما نستشفه من قوله: (24)

أَدِيمُ مِطَالِ الْجُوعِ حَتَّى أُمَيْتُهُ *** وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فَأَذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الْأَرْضِ كَيْلَا يَرَى *** عَلَيَّ مِنَ الطُّولِ امْرُؤٌ مُتَطَوَّلُ

ما يميز الشنفرى عزة نفسه وإباؤها، فهو لم يخرج عن قومه طلباً للذيذ الطعام أو فاخر الثياب، إنّما خرج ليشفي غليلاً أضرمه قومه في قلبه فلا يكاد يخبو حتى تُذكيه فاجعة جديدة، فلم يكن الزاد همه على خلاف من تصعلك لأجل الجمع والإكثار بل يحتاج من الزاد ما يقيم به أودّه لإكمال مسيرة الثأر التي رسمها كهدف لا يحيد عنه، ومن تمام عزته وأنفته رفضه أن يمن أحد عليه بإعطائه الزاد، وهذا ما جعله يميت الجوع ويتناساه حتى لا يكون همه ما يضع في بطنه، وقد كان خروجه لا لغاية السلب والنهب بل لأمر أجل، هي مسألة شرف وكرامة، ولنا أن نتصور كيف كان الشاعر يتناسى جوعه ويميته فلا يفكر في تحصيل الزاد بقدر ما يفكر في إرواء غليله من قومه.

وفي قوله: (25)

وَأَطْوِي عَلَى الْخَمَصِ الْحَوَايَا كَمَا انْطَوْتُ *** خَيْوُطُهُ مَارِي تَغَارُ وَتُقْتَلُ
وَأَعْدُو عَلَى الْقُوتِ الزَّهِيدِ كَمَا عَدَا *** أَزَلُّ تَهَادَاهُ التَّنَائِفُ أَطْحَلُ

يتحدّث الشاعر عن صبره لانعدام القوت، فأمعاؤه من شدة الجوع وخُلُوها من الطعام يابسة ينطوي بعضها على بعض كأنها حبالٌ أُتِقِنَ قَتْلُهَا، وعلى الرغم من هذا الحال الذي آل إليه إلا أنه لم يبد جزعاً أو تضمرًا بل واجه هذا الوضع بالصبر والتصبر إلى أن يأتي الفرج، وفي البيت الثاني شبّه الشاعر نفسه بذئب نحيل الجسم ينتقل بين الفلوات بحثاً عن الطعام، وهذا التشبيه لم يكن عفو خاطر، ولكنه دلّ على علم الشاعر بصفة من صفات الذئب توصّل إليها بعد مخالطته له، وهي الجوع الدائم فهو أبد الدهر جائع مما جعل حالهما متفقين، فالقوت زهيد لكليهما وهذا راجع للبيئة التي يعيشون فيها؛ إذ أن الصحراء قاحلة مجدبة تفرض على قاطنيتها التنقل الدائم بحثاً عن الطعام والكلاء، وقد ألقت هذه البيئة القاسية بظلالها على الشاعر الذي تأقلم معها بصبره على قلة زادها وشح مائها ولم يستسلم لقسوتها، وكل هذا بالصبر والمصابرة.

وفي قوله: (26)

وَأَلْفُ وَجْهَ الْأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا *** بِأَهْدَأُ تَنْبِيهِ سَنَاسِنْ قَحْلُ

وَأَعْدِلْ مَنْحُوضاً كَأَنَّ فُصُوصَهُ *** كَعَابٍ دَحَاها لَاعِبٌ قَبِيٌّ مُثْلُ

صور الشاعر معاناته اليومية التي تعود عليها؛ فقد ألف افتراش الأرض بظهر ظاهرة عظامه، حتى إن هذه العظام هي التي تستقبل الأرض فيرتفع الجسم عنها، وذراعه التي يتوسدها خالية من اللحم لا تبدو فيها إلا مفاصل صلبة كأنتها من حديد، وهذه المعاناة لا يتحملها أيّا كان، ولو لم يكن ذا قلب صبور لما تأتى له مواصلة الثأر والإسراف فيه، وكأنّه جعل من الظروف الصعبة التي يكابدها محفزاً له في إتمام ما بدأه، ومن كمال الصبر وتسامه الرضا بالحال والمآل وهو ما لاحظناه على شاعرنا الذي لم يبد أي سخط على الزمن، أو يتضجر من ظروفه القاسية، بل بقى شامخاً كالجبل رافعا رأسه، ليرسم أجمل مشاهد الصبر والتجلد.

وفي قوله: (27)

فإني لموئى الصبر أجتاب بَرّه *** على مثلي قلب السمع والحزم أفعل

يستطرد الشاعر في تمثيل أخلاق من اتخذهم أهلاً، فهو صبور صبر الذئب ابن الضبع -السمع- الذي يُعرف بحرص الذئب وصبره وجسارة وتوحش الضبع، فقد جمع الصبر والعزم والحزم، فالصبر هو سلاحه الوحيد للعيش في صحراء قاحلة لا أنيس فيها إلا الوحوش الكاسرة، وهو ديدنه ووسيلته للتغلب على كل الصعاب، فبالصبر والتضحية ينال المرء مراده ويحقق غايته ولولا الصبر الذي تميز به الشاعر لما استطاع التأقلم مع حياة البرية والعيش بين الوحوش الضارية والتنقل حافي القدمين والاستغناء عن كل المراكب، و... وهذا ليس بغريب على الشاعر الذي أبت نفسه الصبر على الظلم والأذى والضيء، بينما لقنت العالم أجمع دروساً في الصبر والتضحية في سبيل تحقيق الغايات.

وفي قوله: (28)

فلا جَزَعٌ من خَلَّةٍ مُتَكَشَفٍ *** ولا مَرَحٌ تَحْتَ الغنى أَتَخَيَّلُ

ولا تَزْدهي الأَجْهالُ حِلْيي ولا أرى *** سؤولاً بأعقابِ الأقاويل أنمِلُ

يواصل الشاعر ضربه لأروع أمثلة الصبر وترويض النفس على مختلف الصعاب، فنفى في البيت الأول أن يكون عديم الصبر من فقره، أو أن يكون الفقر سبباً في جزعه وسخطه على الأيام والبشر، وقد رُوي أنه كان يهب ما كان يغنمه لرفاقه ولا يستأثر به لنفسه، لأنه لم يخرج من أجل البحث عن الثراء ولهذا لم يشكل له فقره وعوزه أدنى عائق لمعرفته كيف يتعامل مع الظروف الطارئة، فلا الفقر دائم ولا الغنى كذلك، وكان

يسير في حياته من منطلق فكرة مفادها الصبر على ما لا يملك إلى أن يملك، فلم يعرف الجزع طريقاً لقلبه وهذا ما يدل على حلمه، وهو ما أكدته في البيت الثاني الذي صرح فيه بأنه حليم صبور على استخفاف الجهلاء به، ولا يعير اهتمامه وفكره لما يقال عنه بل وطن نفسه على الصبر على كل ما من شأنه أن يسبب له ضيقاً في العيش أو انتقاصاً من شرفه، وهدفه من هذا أن تكون أفعاله خيراً ما يردّ به على من سقّبه وانتقص من شخصه، وهذا إن دل على شيء إنما يدلّ على خزانٍ من الصبر تزوّد به الشاعر ليظفر بمراده.

إنّ الظروف القاسية وصعوبة الحياة جعلت من الصبر سمة يتصف بها الشنفرى، وقد ساهمت رباطة جأشه وإقدامه في التحلي بهذه الصفة مهما كانت الظروف، وهو ما جعله يتغلب عليها في النهاية ويرسم أروع الأمثلة في الصبر، وإنّ الدارس لشخصية الشاعر يعجب من همته العالية وصبره الدائم على هول الخطوب، وقد نال التقدير والإشادة حتى من أعدائه.

ثالثاً: العفة

رغم أنّ الشنفرى كان ذا ميول إلى الفتك والقتل إلاّ أنّه كان عفيفاً في نفسه، مترقياً عن الضيم والذلّ حتّى لو كان ذلك سبباً في القضاء عليه⁽²⁹⁾ لذا كان يترفع عن الدنيا، ويمكن تصنيف العفة عند الشاعر إلى صنفين؛ صنف يتعلق بالشاعر وآخر يتعلق بالمرأة، ففيما يتعلق بالشاعر ذاته كانت نفسه أبيعاً عفيفة تأنف الضيم وتأبى القهر والقسر، تترفع عن الدنيا⁽³⁰⁾ ومن الأمثلة التي نسوقها على سبيل الاستشهاد قول الشاعر:⁽³¹⁾

وأغدو حَمِيصَ البطن لا يَسْتَفِرُّني *** إلى الزَّادِ حِرْصٌ أو فُؤَادٌ مُوَكَّلٌ

لقد تعلقت نفس الشاعر بغاية هي أسمى في نظره من أن يلتفت إلى ما سواها حتى لو كان ذلك القوت الذي يقيم عوده ويضمن بقاءه على قيد الحياة، فهو يأبى أن يكون مجبراً على فعل شيء كونه تمرّد على حياة الجبر والقسر، فلم يعد يقبل فعل شيء تحت تأثير خارج عن إرادته، حتى لو كان هذا المؤثر حاجة بيولوجية تستدعيها ضرورة الحياة، فهو يرى أنّ الجوع يدفع بالإنسان إلى أن يحط من قيمته أو يقدم على ما تعف نفس الأبي منه، فأثر الصبر على جوعه رغم سوء حاله وحاجته إلى ما يسد رمقه، وأراد من هذا توطئ نفسه على هذا الوضع لئلا تعوقه هذه الأشياء عن إدراك مبتغاه، أو تقوده إلى ما يحط من قدر نفسه بأن يقع ضحية الشره والحرص إلى تحصيل الطعام بكل الطرق

الممكنة، وهذا دليل على عفة الشاعر وعزة نفسه، لأنه أراد أن يحقق ثأره وهو على كرم الخلق الذي يكسبه الاحترام والتقدير حتى من أعدائه.

وفي قوله: (32)

ولكن نَفْساً مُرَّةً لا تُقِيمُ بي *** على الذام إلَّا رُبُّمَا تُحَوِّلُ

يصرح بمعدنه الأصيل الذي لا يقبل بالردائل ولا يقيم عليها، لأنه لم يجعلها هدفه وإن اضطرته الحاجة يوماً إلى خلق مذموم فإنه يسارع إلى تركه والتحول عنه إلى مكارم الأخلاق التي هي طبعه وجبلته، فعزة نفسه وكرم أصله يدعوانه إلى التحليق عالياً في سماء المكارم والأخلاق الفاضلة، فنفسه الأبية لا تطاوعه بأن يقيم على الرذائل ويشين عرضه الوافر، وهذا ما جعله يسعى إلى مكارم الأخلاق انطلاقاً من عفته التي ميّزته حتى أقرانه من الصعاليك.

وفي قوله: (33)

وإن مُدَّتِ الأيدي إلى الزَّادِ لم أَكُنْ *** بأَعْجَلِهِمْ إذ أَجْشَعُ القَوْمِ أَعْجَلُ

إن الحرص على تحصيل المنافع الشخصية صفة رذيلة عند الفارس العربي المعروف بالكرم والجود، والذي يرى أن كمال مروءته هي تمكين غيره من أن ينال حاجته، بل ويمنح أنفس ما يملك لمن طرق بابه، وإن كان ذلك على حسابه الشخصي فلا يسارع إلى ما يسارع إليه ضعفاء القوم، فإبأؤه وعزة نفسه وترفعه عن الدنيا جعلته يربأ بنفسه أن يكون أسيراً لشهواته فيضعف ويستسلم مما يخلف له العار فيما بعد، فهو وإن كان يسابق في الإمساك بالطرائد، فإنه لا يسابق ولا يتعجل أكلها، وفي نظره أن من يعجل إلى الطعام إلا الجشع الذي أعماه الحرص وشدة الطمع، وهي صفات بعيدة عن شهم كالشنفرى الذي لم يكن في يوماً ما حريصاً على ملأ بطنه، وحتى قبل تصعلكه لم يُعرف عنه أي خلق لئيم، ولولا الأحكام القبلية الجائرة التي كانت تنظر إليه على أنه هجين لا بالحر ولا بالعبد لكان أحد أشراف القبيلة وسادتها.

أما بالنسبة للصنف الثاني فتمثل في نظرة الشاعر للمرأة كقيمة إنسانية، والتي يصفها بالعفة والطهارة وبالأخلاق الفاضلة وقد تغنى بجمالها الخلقي بعيداً عن الوصف الحسي الظاهري الذي عُرف به شعراء الجاهلية، ومن ذلك قوله في وصف عِفَّةِ المرأة في قصيدته التائية: (34)

فيا جارتِي وأنتِ غيرُ مُلِمِّمَةٍ *** إذا ذُكِرْتَ ولا بذاتٍ تَقَلَّتِ

لقد أعجبتني لا سَقُوطاً قِنَاعُهَا *** إذا ما مَشَتْ ولا بذات تَلَقَّتِ

لم تكن المرأة تمثل للشنفرى أكثر من نموذج أخلاقي راقٍ، فلم يفتن بمحاسنها الخلقية، ولا استعبده هواها كما حدث مع كثير من الشعراء، فهو ناشد حرية يتمنع عن كل قيد ويستهنج البقاء في البيت مع المرأة يشاورها في أمره كيف يفعل ويؤانسها، بل يراها مثال للأخلاق والعفة والحياء، وهو يصف المرأة التي هي جديرة بأن تكون امرأة حيث تجسد العفة والبراءة والخجل، فنفى عنها أن تكون ممن يُوجّه لها اللوم فلا تذكر إلا بالخير ويبعد عنها البغض والقليل بعد الأرض عن السماء، ثم يواصل سرقاتها في البيت الثاني أن سرّ إعجابه بها هو حياؤها الشديد، وهي حريصة على أن لا يسقط عنها قناعها الذي ترتديه، كما أنها لا تتلفت في مشيتها حتى لا تجلب لنفسها الريبة والشك، وهذا لحرصها على عرضها وشرفها لئلا يجروا كل من يعرفها على التحدث عنها، لأنها مثال الطهارة والعفة والشرف، وهذه هي المرأة التي يفتن بها العربي؛ فخلقها كريم ولسانها عفيف وعرضها مصون وحياؤها وافر، لا تكشف محاسنها طلباً للإغواء ولا تبدي لرائحتها في مشيتها ما ينم عن إرادة للفت الانتباه مما يوحي بإرادة الرذيلة.

وفي قوله: (35)

تَبَيْتُ بُعِيدَ النَّوْمِ تَهْدِي غَبُوقَهَا *** لِحَارَتِهَا إِذَا الْهَدْيَةُ قَلَّتِ

وهي فوق ما ذكر من صفات في البيتين السابقين كريمة اليد معطاءة حين يقل الزاد ويضنّ الناس بما في أيديهم مخافة الافتقار، فتجود بغبوقها وهو شراب المساء خلصة بعد أن ينام الناس لحارته، ولا تبغي وراء هذا مدحا ولا ذكرا، بل الكرم سجيته التي جُبِلت عليها فهي لم تتكلفه من أجل أن يُقال فلانة كريمة، وإن ما بها عفافها وغناها عمّا بيدها إذا كان هناك من هو بحاجة إليه، فتؤثر الغير على النفس.

وفي قوله: (36)

تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللُّومِ، بَيْتُهَا *** إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالْمَدْمَةِ حَلَّتِ

يشير إلى أن هذه المرأة من كرام النساء حافظة لعرضها صائنة لبيتها من أن يطاله ما يعيب البيوت من سوء أخلاق وصيانة البيت كناية عن صيانة العرض مما يدنسها وصيانة لأخلاق أهله من صدق الحديث وكرم الضيافة وحسن الجوار وغير ذلك من أخلاق العرب الفاضلة، وهذه الخصائص هي التي يبحث عنها الرجل في المرأة، فيفتخر ويعتز بها.

وفي قوله: (37)

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نِسِيًّا تَقْصُهُ *** عَلَى أُمِّهَا وَإِنْ تُكَلِّمَكَ تَبَلَّتْ

يصف الشاعر شدة حياء هذه المرأة التي إذا ما مشت تجدها تنظر أمامها وكأنها تبحث عن شيء أضاعته، مما يوحي بأنها غير مكترثة لما يدور حولها ولا تتلفت يمينا أو شمالا، بل تمضي في طريقها ولا يدفعها الفضول إلى البحث عن دقائق الأمور مثلما هي عادة النساء، ويواصل الشاعر الحديث عنها بالقول إنها إن تكلمت ينقطع كلامها لفرط حيائها، وهذه الصفة أجمل ما يزين المرأة.

وفي قوله: (38)

أُمِيمَةٌ لَا يُخْزِي نَفَاها حَلِيلُهَا *** إِذَا ذُكِرَ النِّسْوَانُ عَقَّتْ وَجَلَّتْ
إِذَا هُوَ أَمْسَى أَبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ *** مَا بَ السَّعِيدِ لَمْ يَسْلُ أَيْنَ ظَلَّتْ

يرى الشاعر في هذه المرأة مثالا يُحتذى به، فهي علاوة على صيانة العرض وحفظ البيت مما يعيبه الناس سرُّ سعادة زوجها الذي يفاخر بها إذا ذكر النسوان عفة وجلالا فقد نالت ثقته واستولت على محبته، فهو سعيد بها عند أوبته لا يسألها عن سائر يومها أين قضته لأنها مأمونة الجانب صدوقة الحديث، يسره مخبرها كما يسره منظرها، فهي جميلة حسنة فاق جمالها كل التصور فجمال الروح على جمال الجسد يعطي تكاملا عجبيا، حتى أن الشاعر ذهب إلى أبعد حد في الافتتان بهذه الشخصية التي جسدت الأنوثة في أرق صورها.

من خلال الأبيات السابقة التي قيلت في حياء المرأة وعفتها نلاحظ أن الشاعر اتجه اتجاهاً أخلاقياً في تصوير جمال المرأة المعنوي، فيصف حبيبته بالعفة والاحتشام وكرم الخلق، ورفعته القدر، ويواصل بخياله الرفيع وألفاظه الدقيقة ومعانيه البديعة ونفسه الأبية وصف السيدة المصونة، فهي محجبة لا يسقط قناعها وتسير برفق وغير بخيلة، إذ تؤثر جارتها بالزاد وهي في نجوة من اللوم والكلام الفاحش، وإذا سارت في الدرب فهي تسير بحياء ولا تُكمل كلامها إن كلمتها وتقطع حديثها وتوجز في كلامها خجلاً وحياءً، ثم إن حديث هذه المرأة لا ينزل من شأن زوجها إذ أن حديثها فيه الأدب والوقار والأخلاق الحميدة⁽³⁹⁾ والشنفرى بهذا التصوير الرفيع قد وصل إلى الذروة القصوى في تصوير خُفَرِ وحياء هذه المرأة وعفتها، فإذا رجع إلى منزله الذي هو مكان سكن الروح وارتياح الفؤاد وطمأنينة الشعور، يجد زوجته ملازمة لبيته لا ترحه، وإذا خرجت فإنها تخرج وهي مملوءة ثقة.⁽⁴⁰⁾

إنَّ شيوخ ألفاظ العفة والطهارة هو تأكيدٌ على سُمُو روح هذا الرجل، الذي ترفع عن نزوات الشباب وخطرات الصبا، إذ أنه لا ينزل إلى مستوى الشباب اللاهي العابث في معاملة النساء، لرقى أخلاقه وعفته التي جعلته مثلاً صادقاً عن الإباء والتعفف على الرغم من تصلعه.

رابعاً: الكرم

وهو خلقٌ رفيع يسمو بصاحبه إلى مصاف إثبات الآخر، ويورثه السعادة والذكر الحسن، وعلى الرغم من أنَّ الشاعر مسته ظاهرة الصلعة التي ارتبطت في أهم جوانبها بالوضع الاقتصادي السيئ الذي ساد هذه الفئة، حيث أدى عامل الجوع والحرمان إلى دفعهم للسلب والنهب لسد رمقهم، إلّا أننا نلاحظ وجود ألفاظ دالة على الكرم برغم الحرمان، ومن بينها قوله: (41)

وإني لخلوُّ إن أُريدتْ خلاوتِ *** ومُرُّ إذا نفسُ العزوفِ استمرَّتِ

دلَّ قوله إني لخلوُّ على اتصافه بالسخاء والكرم والعطاء لمن عامله بالحسن، في حين أنَّه قاسٍ وشرس مع من خالفه وآذاه، ومما عرف به الشاعر أنَّه يمنح زاده وطعامه لرفاقه، بل إنَّ سلبه الذي يغتنمه من إغاراته يوزعه ولا يستأثر به لنفسه، لأنَّه بعيد عن الجشع، ولم يكن خروجه لسد افتقار عاشه إنّما كان لغاية أسمى كان يقدها العربي وتعتبر من كمال المروءة والشهامة وهي الثار، ولذا فقد كان كريماً معطاءً يهب قوت يومه وبيات على الطوى ويظل عليه دون أن تدفعه الحاجة إلى الحرص على تحصيله بكل السبل المتاحة.

وفي قوله: (42)

وما ذاك إلّا بسطةٌ عن تفضُّلي *** عليهم وكان الأفضل المتفضِّل

دلَّت كلمة بسطة على الفضل والسعة. وأنَّ الشاعر يرغم ظروفه القاسية، إلّا أنَّه جوادٌ بما يملك، وليس ممن يعمي الجشع والطمع بصيرته، وقد كان يجد السعادة في التفضل بما لديه على أصحابه وهذا ابتغاء الرفعة والفضل، فعلى الرغم من حاجته وفقره وجوعه الدائم إلّا أنَّ الكرم يسري في دمه، وما حاله إلّا خير دليل على هذا، فضمور بطنه وخلو أمعائه دائماً دليل على أنَّ الشاعر يمنح كل ما لديه ولا يستبقي لنفسه إلّا ما يسد رمقه، وقلة أولئك الذين يؤثرون الغير ولو كانت بهم خصاصة، والشاعر واحد منهم.

إنَّ الشاعر كان يهدف من كرمه إلى إثبات ذاته، والانتصار على ظروف الحياة القاهرة التي لم تنسيه مكارم الأخلاق التي نشأ وترعرع عليها وظلَّ وفياً لها حتى بعد أن خرج عن قومه، وهكذا نجد أنه كان ذا نفسٍ كريمة حتَّى في أصعب الظروف وأحلكها، وهذا دليل على معدنه الأصيل، أما النزعة الدموية فلم تكن بدافع الكره أو البغض إنما هو الثأر الذي كانت تقدسه العرب ككل وليس الشاعر فحسب.

الخاتمة:

يتبيّن لنا من خلال ما سبق أنَّ الشنفرى كان يتصف بجُملة من الفضائل والقيم، يأتي في مقدمتها الشجاعة والإقدام، التي لم تكن تعني التهور والطيش، بقدر ما كانت تعني الإقدام في مواضع الإقدام والإحجام متى دعت الضرورة لذلك، بالإضافة إلى الصبر الذي يتطلب جُلداً قوياً وعزة نفس وإباء، وهي جميع الصفات التي تحلّى بها الشاعر طلباً للرفعة، وإلى تخليد اسمه ضمن عظماء التاريخ بالرغم من الطابع الدموي الذي ميّز سيرته، وعموماً يمكننا القول بأنَّ الشاعر اتّصف ببعض مكارم الأخلاق التي حثَّ الإسلام فيما بعد على التقيد بها، ولولا الأعراف والتقاليد الجائرة التي كانت تسيّر نظام القبيلة وتقوم على التمييز الطبقي بين أفراد المجتمع، ولولا الظلم الذي تعرض له الشاعر لكان أحد أعلام العرب في التقيد بمكارم الأخلاق.

- (1) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، ج1، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، سوريا، 1981، ص: 20.
- (2) محمود حسن أبو ناجي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص: 06.
- (3) أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، ط4، دار إقرأ، بيروت، لبنان، 1985، ص: 254.
- (4) محمود أبو ناجي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي، ص: 7.
- (5) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (6) الديوان، ص: 45.
- (7) الديوان، ص: 78.
- (8) محمود أبو ناجي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي، ص: 9.
- (9) صالح مفقودة، القيم الأخلاقية للعربي من خلال الشعر الجاهلي، ع1، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ص: 191.
- (10) أحمد أمين، كتاب الأخلاق، ط9، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 2003، ص: 193.
- (11) الديوان، ص: 28، صمّم بالسيف: مضى إلى العظم وقطعه، الحُسام: السيف، المسيب: المتروك يقطع ما يشاء، خرّ: سَقَطَ مات، الكميّ: الشجاع، واللابس للسلح، القزم: السيد، المُسَلَّب: المُلْقَى.
- (12) الديوان، ص: 30، الظمأ: شدة العطش، الخَمَص: الجوع.
- (13) الديوان، ص: 35، 36، أُمَسِّي: كأنّه يغزو على رجليه، لأنكي: لأقتل، والمعنى أمشي على الأرض على الرغم مما يصيبه من تعب ابتغاء قتل قومي أو أن أقتل في سبيل ذلك.
- (14) الديوان، ص: 55، ضُنْكَ: ضيق، جُمَاعُهُ: مجتمعه، الأيم: ذكر الحية، القانت: الدليل المتواضع، الحوش: بلاد الجن، تعسّفت: ركبت عن غير هداية، الغماليل: الروابي.
- (15) الديوان، ص: 59.
- (16) الديوان، ص: 61، الخرق: ذو الوحشة من الخوف، الهيق: الظليم (ذكر النعام) يُعرَف بشدة نفوره وخوفه، المكاء: ضرب من الطيور.
- (17) الديوان، ص: 71، 72، الشّعري: كوكب يطلع في فترة الحرّ الشديد، اللعاب: المقصود به ما ينتشر في الحرّ كخيوط العنكبوت في الفضاء، رمضاء: شدة الحر، تتملل: تتحرك وتضطرب، الكِن: الستر، الأتحمي: نوع من الثياب كالعباءة، المُرْعَبَل: المُمَرَّق، الخَرَق: الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح، كظهر الترس: يعني أنها مستوية، قفر: خالية، مقفرة، العالمتان: رجلاه، ليس يُعمل: ليس مما تعمل فيه الركاب.

- (18) الديوان، ص: 48، أم عامر: كنية الضبع، سجيس الليالي: طولها، مُبَسَّلاً: مُسَلِّماً.
- (19) الديوان، ص: 38.
- (20) صالح مفقودة، القيم الأخلاقية للعربي من خلال الشعر الجاهلي، ص: 193.
- (21) الديوان، ص: 37، القَتِيل هو حُزَام بن جابر قاتل والد الشنفرى، المُحَرَّم: الداخل في الحرم، المهدي هو الذي يُقدِّم الهدى في الحج، بِمَلْبَد: إشارة إلى عادة العرب في العصر الجاهلي بدهن شعورهم بشيء من الصَّمغ للتلبيد، الجَمَار: الحصى التي يرميها الحاج في منى، سلامان بن مُفْرج: بطن من الأزد، أزلت: قدَّمت، الغليل: حرارة العطش، المعدى: موضع القتال.
- (22) الديوان، ص: 57، عمرو: هو عمرو بن كلاب قتلته قبيلة بجيلة مع رفيقه المسيَّب بن علس، ويزيد وسعد: قتلتهما الشنفرى ثاراً لمقتل عمرو والمسيب، نُفَرِي: نقطع ونشق، الدكادك: الأرض التي فيها غلظة.
- (23) عبد الله العمري، مكارم الأخلاق في نقائض الفرزدق وجريير «المضمون والفن» رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1429هـ، ص: 84.
- (24) الديوان، ص: 62.
- (25) الديوان، ص: 63، الخَمَص: الجوع، الحوايا: الأمعاء، ماري: اسم رجل اشتهر بصنع الحبال وقتلها، تُفَارُ: يُحكم قتلها، أغدو: أذهب في الغداة، الأزل: صفة للذئب القليل اللحم، تماداه: تتناقله، التناثف: الأراضي أو المفازة في الصحراء.
- (26) الديوان، ص: 67، آلف: أتعوَّد، الأهدأ: الشديد الثبات، تُنْبِيه: ترفعه، سناسن: فقار العمود الفقري، فُحِّل: جافَّة يابسة، أَعِدِلْ: أتوسَّد ذراعاً، المنحوض: من ذهب لحمة، الكعباب: شيء يُلْعَبُ به، دحاهل: بسطها، مُثِّل: مُنْتَصِبة.
- (27) الديوان، ص: 69، أجتاب: أقطع، بَزَه: ثيابه، السَّمع: ولد الذئب من الضبع.
- (28) الديوان، ص: 69، جَرَج: عديم الصبر، خَلَّة: الفقر والحاجة، المتكشَّف: الذي يكشف فقره للناس، المتخيل: المختال بغناه.
- (29) محمود حسن أبو ناهي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي، ص: 62، 63.
- (30) حرشاي جمال، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك (الشنفرى أنموذجاً) أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، 2016، ص: 139.
- (31) الديوان، ص: 61، خميص البطن: خالي البطن ضامره، يستفَرُّني: يُثِيرُنِي.
- (32) الديوان، ص: 63، نفساً مَرَّةً: نفساً أبيّة، الذام: العيب الذي يُذمُّ به، يُلْفَى: يوجد.
- (33) الديوان، ص: 59.
- (34) الديوان، ص: 32، تَقَلَّتْ: من القلى وهو البغض.
- (35) المرجع نفسه، الصفحة نفسها، الغَبُوقُ: شراب المساء.
- (36) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- (37) الديوان، ص: 33، اليَسْبَى: ما يُنْسَى، الأم: القصيد، تَبَلَّتْ: تنقطع في كلامها لا تطيله.

(38) المرجع نفسه، الصفحة نفسها، النثا: إخبارك عن الشيء بالحسن أو القبح، أب: رجع، قرّة العين: ما يُسرُّ به الإنسان ويطمئن.

(39) محمود أبو ناجي، الشنفرى شاعر الصحراء الأبي، ص: 59.

(40) المرجع نفسه، ص: 60

(41) الديوان، ص: 38، العزوف: الراجع عن الشيء التارك له عفة.

(42) الديوان، ص: 60، البسطة: السعة.

*** **